واترك لنا ما علينا
كما نترك نحن لمن لنا عليه

١٣ تشرين الأوّل ٢٠٠٢

يتكلّم العهد القديم كثيرًا على مغفرة الخطايا. فالله الذي لا يحبّ الخطيئة، ويجرحه ابتعاد شعبه عنه وتصلّب رقابهم، هو إله رحيم ومترئّف بشعبه، ويحبّهم كما يحبّ الأب أبناءه والعريس عروسه (هوشع ٢: ١؛ إرميا ٢: ٢؛ حزقيال ١٦ و٢٣)، وهو يعدهم بالمغفرة والحياة إذا قبلوا دعوته وعادوا إليه بالتوبة (مزمور ٣١: ٥؛ إشعيا ٥٥: ٧– ٩؛ إرميا ٣: ١٢– ١٤؛ حزقيال ١٨: ٣١– ٣٢ وهوشع ١٤: ٢– ٩ ...). وهذا عينه يتابعه العهد الجديد، فيكشف لنا أيضًا صورة الآب الغفّار والحنون الذي أرسل ابنه إلى العالم لينقذ الناس من شقائهم، ويطّهرهم، بموته وقيامته، من خطاياهم، ويلبسهم حلّة جديدة، هي إيّاها حلّة العرس.

كولوسي ٣: ١٣)، وهو يرتّب غفرانه الأخير على أساس غفران البشر بعضهم لبعض.

عظمة هذه الطلبة أنّها تحضّ المؤمنين على أن تكون أخلاقهم شبيهة بأخلاق أبيهم السماويّ. وهذا ممكن لا لأنّ الإنسان قادر عليه، بل لأنّ الله الآب نفسه يمكّن أخصّاءه منه. وهذا لا يفهمه الذين يصرّون على سلوك الطرق الرديئة – فهؤلاء لا يمكنهم أن يصلّوا هذه الطلبة أو يسلكوا بموجبها – ولكن الذين انتموا، برضاهم، إلى ملكوت الله.

وإذا عدنا إلى موقع الصلاة في إنجيل متّى، نجد أنّ الربّ بعد أن علّم أتباعه هذه الصلاة، قال لهم: «فإن تغفروا للناس زلاّتهم يغفر لكم أبوكم السماويّ، وإن لم تغفروا للناس لا يغفر لكم أبوكم زلاّتكم» (٦: ١٤– ١٥). وهذا يفترض أن يتحمّل أتباع يسوع الحقيقيّون، في أحيان كثيرة، الظلم، وأن يبتعدوا عن الحقد، ويتنازلوا عن كلّ انتقام (أنظر: متّى ٥: ٣٩– ٤٠). فالرحمة واجبة في كلّ حال، وهي واجبة قبل الذبيحة. وذلك بأنّ الله لا يرضى أن يقف أمامه عابدًا من أظلم الحقدُ قلبه. يقول الربّ: «فإذا كنتَ تقرّب قربانك إلى المذبح وذكرت هناك أنّ لأخيك عليك شيئًا، فدعْ قربانك هناك عند المذبح، واذهب أوّلاً فصالح أخاك، ثمّ عُدْ فقرّب قربانك» (متّى ٥: ٢٣– ٢٤). وهذا يؤكّد أنّ الشركة مع الله تمرّ عبر مصالحة القريب، هذه المصالحة التي لا يؤجّلها

والحقّ أنّ الربّ ترك لنا كلّ «ما علينا»، لا بل حمله هو (١بطرس ٢: ٢٤)، لمّا علقّ مصلوبًا على رابية من روابي أورشليم. وكشف – على الصليب – أنّ محبّة الله تفوق، بما لا يقاس، كثرة خطايانا، وأنّ هذه المحبّة تطالنا فعلاً إذا سمحنا لله بأن تسكن رحمته فينا، وتركنا نحن أيضًا بدورنا «لمن لنا عليه».

من النوافل القول إنّ من يعترف بأنّ الله رحيم، هو، بالضرورة، يقرّ بأنّه إنسان خاطئ، وبأنّ الله، تاليًا، قادر على أن يعيد له مكانته الأولى، أي أن يصنعه جديدًا. وإذا فكّرنا قانونيًّا، فإنّ اعترافنا بذنوبنا يعني أنّنا لا نستحقّ مغفرة الله، بل عقابه. ولكنّ محبّة الله تمنعنا من أن نفكّر على هذا المنوال، لأنّ منطقه يخالف منطق هذا العالم وقوانينه. فهو يغفر للناس لأنّه يحبّهم، وليس لأنّ البشر يستحقّون (رومية ٥: ٨). وهذا الفعل عينه يريدنا الربّ أن نترجمه مع الآخرين، وذلك بأنّ من يقرّ بخطاياه لا يرى خطايا البشر شيئًا. وليس هذا فقط، ولكن أن نعرف أنّ كلّ شرّ يرتكبه أحد بحقّنا، ليس هو بشيء أمام الشرور التي نرتكبها نحن بحقّ الله. يقول القدّيس غريغوريوس النيصصيّ: «إنّ ديون أخوتنا لنا، لو قارنّاها بتجاوزاتنا تجاه الله، لبدت وكأنّها بضع قطع نقديّة لا تذكر، يسهل عدّها، قياسًا بالوزنات التي تلقّيناها من الله، وهي لا تحصى» (أنظر مثل «العبد غير الشفوق» في متّى ١٨: ٢٣– ٣٥). فالله يريدنا أن نغفر للآخرين ذنوبهم كما غفر لنا المسيح (أفسس ٤: ٣٢؛

علم نيكفورس بما حدث. فحزن، وخاف أن يموت صديقه قبل أن يتصالحا ويتصافيا. فلاقاه على الطريق وانطرح عند قدميه طالبًا أن يغفر له. فازدراه ولم يجبه. فكرّر نيكفورس ما فعله مرّة وأخرى، حتّى إنّ الجنود الذين كانوا يسوقون الكاهن سخروا منه لأنّه يحاول نيل رضا إنسان لا يلبث أن يموت، فلم ينل منه سوى الازدراء. ولمّا انتهوا إلى مكان الإعدام، كانت نعمة الروح القدس قد فارقت ذلك الكاهن الحقود. ولمّا رأى سبريسيوس السيّاف يتهيّأ لقطع رأسه ارتعدت فرائصه هلعًا. فما كان منه إلاّ أن صرخ: «لا تفعل، فأنا طوع أوامر القيصر وعبد للآلهة». وقع هذا الكلام كالصاعقة على نيكفورس الذي كان مازال واقفًا ينتظر لعلّه يحظى بغفران الكاهن، واشتعل قلبه بالغيرة المقدّسة، وأخذ يصرخ: «أنا مسيحيّ، أنا مسيحيّ». فأطلق الجنود سراح الكاهن الجحود الذي لم يطع قول الربّ (متّى ٦: ١٤ و١٥)، وقطعوا رأس نيكفورس، فنال إكليل الشهادة جزاء تواضعه ومحبّته».

ما هو ثابت، في كشوفات الكتب المقدّسة، أنّ الله لا يغفر لنا لأنّنا نغفر نحن للآخرين فحسب، ولكن لأنّه يغفر ينتظر أن نغفر نحن أيضًا. فرحمة الله أوّلاً تفهمنا عمله الخلاصيّ، وتحدّد سلوكنا مع الآخرين، وهي تعطينا أن نمتدّ إلى اليوم الذي سيختار فيه الله من تشبّهوا برحمة ابنه التي هي محكّ الإيمان الصادق والحقيقيّ.

أمر ولا حتّى تقديم العبادة لله نفسه. ومن الثابت أنّ الربّ أعطى المغفرة مكان الصدارة في حياة الجماعة. نقرأ: «فدنا بطرس وقال له: «يا ربّ، كم مرّة يخطأ إليّ أخي وأغفر له؟ أسبع مرّات؟»». فقال له يسوع: لا أقول لك: سبع مرّات، بل سبعين مرّة سبع مرّات» (متّى ١٨: ٢١-٢٢). وهذا يجب أن نفهمه في سياق تصرّفات الله معنا. فالله الذي رحمته كاملة يدعونا إلى الاقتداء به.

دونكم هذه القصّة الرائعة التي توضح أهمّيّة المغفرة: «كان نيكفورس أنطاكيًّا من عامة الشعب التقيّ البسيط. وكان صديقًا حميمًا لأحد الكهنة ويدعى سبريسيوس. ثمّ حدث فتور بين الصديقين فنزاع فانقطاع. ودام ذلك زمانًا طويلاً، إلى أن أحسّ نيكفورس بخطئه فقرّر أن يسعى إلى الصلح. فأرسل بعض الأصدقاء المشتركين إلى الكاهن مرّة ومرّتين طالبًا صفحه. غير أنّ الكاهن سبريسيوس رفض الاعتذار. ثمّ أرسلهم مرّة أخرى، ولكن من دون جدوى. أخيرًا ذهب نيكفورس نفسه إلى منزل الكاهن يلتمس المغفرة، ولكنّ هذا الأخير كان مصمّمًا على أن يصمّ قلبه عن كلّ اعتذار. وكانت الكنيسة، في ذلك الوقت (أواسط القرن الثالث)، تعاني اضطهادًا مريعًا.. فأُمسك الكاهن سبريسيوس وسيق إلى الموت، وخيّره الولاة، قبل تنفيذ القضاء، بين العذاب فالموت وبين أن يجحد المسيح. فأبى أن ينكر الربّ... فعذّبوه، وحكموا عليه بقطع رأسه، وساقوه إلى موضع تنفيذ الحكم.